**سورة لقمان**

وهي سورة مكية، تناولت ضمن مقاصدها تغذية الفطرة السليمة بعجائب مخلوقات الله تعالى في الكون، وما يجب لله تعالى تجاهها؛ من العبادة، والشكر، والتسليم، والتوحيد في أربعة مقاطع إيمانية ربانية.

الم (1)

ثلاثة حروف من الحروف العربية، التي بها أنزل الله تعالى هذا القرآن العظيم .

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2)

ووصف الله عز وجل كتابه بثلاث صفات:

1. أن آياته المشار إليه في هذه السورة وغيرها بلغت منزلة عالية في العلو والعظمة، لا ينالها إلا من شمّر في الترقي إلى الفضائل، والتخلي عن الرذائل .
2. وأن معانيه جامعة لكل خيرٍ، محذّرة من كل شر؛ لذا قال سبحانه: (الكتاب)، ومادة كتب تدور على الجمع .
3. وأن أحكامه محكمةٌ في وضع الأمور في محالها المناسبة لها، آمرةٌ بخالص المصالح وراجحها، ناهيةٌ عن خالص المفاسد وراجحها، جامعةٌ في ذلك بين الترغيب والترهيب بأحسن سبيل، دالةٌ على عظيم علم الله، وقدرته، ورحمته .

**المقطع الأول:** في تغذية الفطر بعجيبة خلق السماوات والأرض، وبيان الواجب لله تعالى في ذلك؛ من إحسان عبادته سبحانه :

هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)

وقد وُفق لعظيم ما في القرآن من هداية السبيل، ورحمة الجليل المحسنون:

1. الذين أحسنوا في عبادة الله، ومن ذلك: إحسانهم في إقامة الصلاة خالصةً لله، مقتفيةً هدي رسول الله ، فوجدوا حلاوة أثرها في الأنس بمناجاة الله، والصدّ عن الفحشاء والمنكر.
2. وأحسنوا إلى خلق الله، ومن ذلك: إخراج الزكاة من طيب أموالهم إلى المحتاجين؛ طيبةً بذلك نفوسهم، سخيةً في ذلك أيديهم، فوجدوا حلاوة أثرها في قمع شحّ النفس، وتجسيد معاني التراحم في المجتمع.
3. وأحسنوا في عقائدهم ونياتهم وعلمهم بالله؛ فعبدوا الله كأنهم يرونه، وأدّوا حقوقه؛ موقنين بلقائه وجزائه، لم يطلبوا من الناس أجرًا ولا مدحًا ولا شكورًا .

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)

وأصحاب هذه الرتب العليَّة فازوا بجائزتين عظيمتين:

1. أنهم على هدى عظيم وبصيرة بيّنة، استعلوا بها على غيرهم، منحهم إياها ربهم المنان، الذي رباهم بمعاني الإيمان واليقين .
2. وأنهم خصُّوا بالسعادة والفوز في الدنيا والآخرة .

قال البقاعي (15/145): "(من ربهم) تذكيرًا لهم بأنه لولا إحسانه ما وصلوا إلى شيء؛ ليلزموا تمريغ الجباه على الأعتاب، خوفاً من الإعجاب" .

وفي مقابل هؤلاء: المحرومون من النور والهدى، المتبعون للشهوات، الذين خذلهم الله تعالى، وتنكبوا سبيل الفطرة السليمة:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (6)

أولئك هم الأشقياء الذين:

1. أعرضوا عن هدايات القرآن، واستعاضوا بأموالهم وأعمارهم وسعادتهم الحقيقية سماع الملهيات عن العمل الصالح؛ من أحاديث الغناء، والغيبة، والجدال الباطل، والمضحكات، وقبيح اللهو واللغو .
2. وهم من ضلّ سبيل السعادة والهدى، ثم سعوا ليضلوا بقية الناس عنها .
3. وهم من قادهم الجهل والهوى، وحرموا بركة العلم النافع .
4. وهم من انتكست فطرهم، فاتبعوا الباطل، وسخروا من الحق وأهله .
5. وهم من توعدهم الله عز وجل بعذاب يُهينهم فيه؛ كما استهانوا بآياته وشرعه .

قال ابن مسعود : " (ومن الناس من يشتري لهو الحديث)، قال: هو الغناء، والله الذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات "، وهو قول ابن عباس وجابر ، قال قتادة: "والله، لعله لا ينفق فيه مالاً، ولكن شراؤه استحبابه" .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7)

1. وهم الذين لما انتكست فطرتهم بإقبالهم على اللهو واللعب والطرب لم تزدهم تلاوة القرآن الحكيم إلا غفلة وإعراضًا واستكبارًا، فصار الواحد منهم إذا تُلي عليه القرآن:
2. كأنه لم يسمعه .
3. وكأن أذنيه سدّتا عن سماع ما ينفعه، وأصابها الصمم .

قال ابن سعدي ص(647): "(فَبَشِّرْهُ) بشارة تؤثر في قلبه الحزن والغم; وفي بشرته السوء والظلمة والغبرة، (بِعَذَابٍ أَلِيمٍ): مؤلم لقلبه; ولبدنه"، قال ابن كثير (6/332): "يؤلمه؛ كما تألم بسماع كتاب الله، وآياته".

وفي مقابل هؤلاء أولئك الأوائل الذين انتفعوا بالقرآن، فقادهم للعلم والهدى والعمل الصالح:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8)

فهم يتنعمون في الجنان بأنواع الملاذ في مآكلهم وملابسهم ومناكحهم ومساكنهم؛ بما لا يخطر على قلب أحد؛ من نعيم العين والأذن والبدن والروح .

خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)

مقيمون دائمًا فيها، لا يُخرجون منها، ولا يبغون عنها حولاً ولا انتقالاً، (وعد الله حقًا) كائنٌ لا محالة؛ لأنه من وعد:

1. من عزّ؛ فقهر كل شيء، ودان له كل أحد .
2. ومن حكم بين عباده، فأحكم لهم جزاءه، وأبدع لهم ثوابه .

بل لو تأملتْ فطرُهم فردًا واحدًا من أفراد عزته وحكمته، وبديع قدرته؛ لتغذت بمعاني الإيمان والحكمة، أما إنهم لو تأملوا في كونه الكبير، وكيف أن الله سبحانه:

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10)

كان من بديع وعجيب خلقه:

1. أن خلق سبع سموات طباقًا، وجعل قبتها، وأفلاكها الضخمة مستقرة في محالها، مترددة في مداراتها دون أن تروا لها أعمدة تثبتها، أو تمسكها عن السقوط .
2. وخلق أرضًا تتحرك دون أن تضطرب، ثبّتها بجبال ثابتة، ترونها شامخةً موزعةً في أرجائها .
3. ونشر في كل محلة فيها من برٍ وبحرٍ وجوٍ دوابًا؛ بديعًا خلقها، مختلفةً أشكالها، تذهل كلُ واحدة منها المتأملَ في عجيب حياتها وتركيبها .
4. وأنزل سبحانه من معصرات السحاب ماءً، أجراه في أنهارها وعيونها وبحارها .
5. وخلق منه في أرجاء الأرض أصنافًا مختلفةً طعومها، وأشكالها، وألوانها، تسر الناظرين، أو تشبع الآكلين، وبها منافع للمستنفعين .
6. وجعل - من بديع خلقه - كل صنف من نباتاتها بين ذكورة وأنوثة، فيجمعهن في زهرة واحدة، أو في شجرة واحدة، أو يفرقهن في أشجارٍ متباعدة .
7. ثم إن شاء زوجهم، ولقح بعضهن ببعض، وأكرم عباده بعطاء؛ كريم المنظر والمخبر .

"إن دراسة توزيع الألوان في زهرة واحدة من نبتة واحدة؛ لتقود القلب المفتوح إلى أعماق الحياة، وأعماق الإيمان بالله مبدع هذه الحياة"، في ظلال القرآن (5/2787) .

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (11)

1. ثم أخبر فطرهم - التي تناست وجحدت - بأن هذا هو بديع صنع الله، وخلقه .
2. وتحداهم بأن يأتوا بأدنى شيء خلقه أحدٌ من دون الله سبحانه .
3. ثم أضرب عما سبق؛ ليخبرهم أنهم ظلموا أنفسهم بإنكارهم ما تأصل في فطرهم، فعاشوا لأجل ذلك في بعد عن الحق، وانغمسوا في ضلال واضح بيّن .

**المقطع الثاني:** في تغذية الفطر السليمة بما يحيي اللهُ به قلوب من يشاء من عباده؛ من حكمةٍ وسداد قول وعمل، وما يتبع ذلك من واجب الشكر لله الخالق المعبود :

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12)

واختلف في لقمان؛ أكان نبيًا أم لا؟، قال الجمهور: كان وليًا، وقال عكرمة والشعبي بنبوته.

قال ابن عباس: كان عبدًا حبشيًا، وقال مجاهد: كان لُقْمَان عبدًا أسود عظيم الشفتين.

قال ذات مرة لرجلٍ ينظر إليه: إِن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق، وإن كنت تراني أسود فقلبي أَبيض، ومما يروى عنه كذلك: أن سيده قال له: أذبح لي شاة، وأتني بأطيب مضغتين فيها، فأتاه باللسان والقلب، فقال له: ما كان فيها شيء أطيب من هذين، فسكت، ثم أمره بذبح شاة أخرى، ثم قال له: ألقِ بأخبث مضغتين فيها، فألقى اللسان والقلب، فقال له: أمرتك بأن تأتيني بأطيب مضغتين، فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تلقي أخبثها، فألقيت اللسان والقلب! فقال له: إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا أخبثا.

وقد أعطاه الله الحكمة، والحكمة معرفة الأحكام الشرعية، وإدراك حِكمها ومقاصدها، ثم اتباع هذا العلم بالعمل، ومن أجلّه: شكر الله تعالى، بنسبة نعمه إليه، وعدم استعمالها في معصيته:

1. والواجب فعله: تجديد الشكر لله تعالى، وتعاهد ذلك دومًا؛ لذا جاء بصيغة المضارع: (ومن يشكر).
2. والواجب تركه: ترك كفر نعم الله تعالى، وجحودها، ولو مرة واحدة؛ فمن فعل ذلك فقد يجازى بالإعراض عنه؛ لذا جاء بصيغة الماضي: (ومن كفر).

والجزاء أن الله تعالى:

1. غني عن الشكر وغيره، لا يضره عدم شكر الكافر.
2. حميد بالمحامد كلها، لا يُضيع أجر الحامد الشاكر، بل جزاء شكره يرجع إليه .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ

وحتى تعلم ما آتى الله سبحانه عبده لقمان من الحكم العظيمة، التي توصل بها إلى أداء حقوق الله تعالى، وحقوق عباده، اذكر شيئًا من حكمته، يوم أن أوصى ابنه بوصية جامعة لأصول الحكمة الكبار، وأمهات الحِكم والوصايا، وهي وصية عظيمة:

1. لأن الله تعالى خلّدها في القرآن الكريم.
2. ولأنها وصية من أعطاه الله الحكمة .
3. ولأنه قرن بكل وصية منها ما يدعو إلى فعلها؛ إن كانت أمرًا، وإلى تركها إن كانت نهيًا.
4. ولأنه كررها عليه في صورة الموعظة؛ ولذا جاء بصيغة المضارع: (وهو يعظه)، والوعظ يوقظ الشعور، ويرقق القلب، ويهذب النفس، ويوجب الخشية .
5. وهي كذلك وصية أبٍ مشفقٍ لابنه فلذة كبده؛ لذا كرر نداءه بقوله: (يا بني)، مع إظهار الترحم والتحنن والشفقة، ليكون ذلك أدعى لقبول النصح، وبها يظهر أهمية اهتمام الوالدين بتربية أبنائهم، وتوجيههم في معتقدهم، وقيمهم، وعباداتهم، وسلوكهم .

ولقد جعلها في أربع وصايا عظيمة:

يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13)

الوصية الأولى لك يا بني: اهتم بأمر بتوحيد الله عز وجل، فإنه أجلّ الشكر لله، واحذر كل الحذر أن تشرك بالله تعالى أحدًا معه؛ في أسمائه أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه؛ فالشرك أظلم الظلم، ومضاد للحكمة؛ إذ هو وضع لأعظم شيء في غير محله؛ بتسوية المملوك بالمالك سبحانه .

فعن عبد الله بن مسعود ، قال: لما نزلت: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)، شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ، وقالوا: أيّنا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله : "ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14)

ولما وصى لقمان ابنه بحق الله تعالى، أكدّ هاهنا ربنا سبحانه حق الوالدين، وحق شكرهما بأربعة مؤكدات:

الأولى: أن الله تعالى جعله عهدًا على الأبناء، وأخذ الوصية عليهم بالقيام به .

والثانية: أن الله ذكّرهم بصورة من صور المشقة التي تحملها الوالدان، وخصّ الأم - لما لها من الحق، ولكون حقها قد يقابل بالأذية والتأفف أكثر من الأب؛ لما له من مقام العظمة والقوة - فذكّرهم الله بحالها: حال حملها لهم، على ما بها من المشقة المتلاحقة، والضعف المتتابع، فهي ذات وهنٍ، وتحمله في أحشائها، ثم حال إرضاعها ورعايتها لهم، فكانوا يبنون أجسادهم بامتصاص جسدها، وينعمون براحتهم بإسهار ليلها، وإجهادها نهارها، ومع ذلك كانت تعدها من أيام سرورها وسعادتها؛ لذا عبر بقوله: (في عامين)، وإطلاق العام – دون لفظ السنة – لما في هذا الاسم من معنى الرغد والسرور .

والثالثة: أن قرن سبحانه شكره بشكرهما، فمن لم يشكر لوالديه لم يشكر لله .

قال البقاعي: "(لي) أي لأني المنعم بالحقيقة، (ولوالديك) لكوني جعلتهما سبباً لوجودك والإحسان بتربيتك .. إعلاماً بأن الوفاء شيء واحد، متى نقص شيء منه تداعى سائره" .

قال ابن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما .

والرابعة: أن ذكّرهم سبحانه أن المصير إليه؛ فيجازي البار ببره وإحسانه، والعاق بظلمه وجحوده .

وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15)

فإن اجتهدا على أن يوقعاك في الشرك بالله، وأن تتبعهما على دينهما الباطل، مع ما أمرك الله به من طاعتهما فالزم ثلاث:

الأولى: لا تطعمها في هذه المعصية، ولم يقل سبحانه: فعقهما، ولا يمكن أن يدل علم من العلوم على شيء من الشرك، بل العلوم كلها دالة على وحدانية الله تعالى؛ لذا قال تعالى: (أن تشرك بي ما ليس لك به علم).

والثانية: احرص على مصاحبتهما بالمعروف والإحسان في الأمور الدنيوية، التي لا تتعلق بالدين، ما دامت حياتهما.

والثالثة: بالغ في اتباع سبيل الخاضعين والمنيبين لله تعالى .

وانتظر في ذلك جزائي إذ أُخبرك ببرك، وأخبرك بما قدمت من تقديم طاعتي على ما سواي .

وفي تفسير ابن كثير (6/337): عن أبي عثمان النهدي أن سعد بن أبي وقاص قال: أنزلت فيّ هذه الآية: (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) الآية، وقال: كنت رجلاً برًا بأمي، فلما أسلمت، قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي، فيقال: "يا قاتل أمه"، فقلت: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يومًا وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت، فمكثت يومًا آخر، وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيتُ ذلك قلتُ: يا أمه، تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي، وإن شئت لا تأكلي، فأكلت، وأخرجه مسلم في صحيحه مختصرًا .

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16)

والوصية الثانية: في تغذية الفطرة السليمة بمراقبة الله تعالى:

أيقن يا بُني - متحبباً إليه، ومصغراً له أن يحمل شيء من غضب الله تعالى - أنها لو كانت أقل ما يخطر ببالك؛ من مثقال حبة خردل من عمل سوءٍ فعلته، فغابت في أصعب ما يعسر عليك إيجادها فيه:

1. من صخرة صلبة صماء، اختفت الحبة في جوفها .
2. أو من سموات واسعة الأرجاء، ذهبت الحبة في خفاياها .
3. أو من أرض شاسعة الأنحاء، ضاعت الحبة بين ترابها .

(يأت بها الله) فلا تخفى على علمه الذي أحاط بكل شيء، ولا تُعجز قدرته التي لم يفتها شيء؛ كما قال تعالى: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) .

وذلك لأن الله تعالى:

1. لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء، وإن دقت وتضاءلت.
2. خبير بأخفى الأشياء، فلا يخفى عليه شيء .

اطلع سبحانه على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار، فأعظم بعلم الله، وقدرته، ودقيق حسابه .

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17)

والوصية الثالثة: في القيام بعبادة الله تعالى، ودعوة الناس لذلك:

(يا بني) مكرراً المناداة - تكراراً للنصيحة لفرط الشفقة - احرص على ثلاث:

1. أن تسعى في تكميل نفسك: بإقامة الصلاة بفروضها في أوقاتها، فإنها روحك في السماء وذكرك في الأرض .
2. ثم أن تسعى في تكميل غيرك: بأمره بالخير والمعروف، ونهيه عن الشر والمنكر .
3. ثم لتصبر على الاعتصام بدينك، ودعوة الناس إليه؛ فإن القابض على دينه كالقابض على الجمر .

واعلم أن تلك الوصايا العظيمة التي أوصيتك بها من الأمور التي ينبغي عليك أن تعزم عليها، ولا تتردد فيها؛ فإنه لا يوفق لها إلا أهل العزائم؛ قال البقاعي: "وقد بدأ هذه الوصية بالصلاة، وختمها بالصبر؛ لأنها ملاك الاستعانة، (واستعينوا بالصبر والصلاة)" .

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18)

والوصية الرابعة: في الأخلاق الكريمة والآداب القويمة، وذكر منها ثلاثة:

1. الأول في آداب لقاء الناس: فنهاه عن الكبر بالنهي عن لازمه، نهاه أن يُميل خده؛ بإمالة عنقه تكلفًا لإظهار التكبر على الناس، والاحتقار لهم، وشبهه بالبعير، فأصل الصعر داء يصيب البعير، يلوي منه عنقه .
2. والثاني في آداب المشي: فنهاه عن الكبر بالنهي عن لازمه، نهاه أن يمشي في الأرض مشي المتكبر المتبختر؛ كقوله تعالى: (ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا)، وعلل ذلك بقوله: إن الله لا يحب كل مختال في مشيته، فخور في نفسه .

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)

وأرشده أن يجعل مشيه متوسطًا معتدلاً؛ لا إفراط ولا تفريط؛ لا مشي المسرع الفرح، ولا البطيء المتماوت، فعن ابن مسعود : كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى .

1. والثالث في آداب الكلام: فأمره بالتواضع والسكينة بأمره بلازمهما، أمره بخفض صوته، وعلل له ذلك بإخباره أن أقبح وأبشع الأصوات صوت الحمير، وما رَفَعَها عند الناس ارتفاع أصواتها، بل هي من علِم الناس بلادتها وخستها .

بل صح من حديث أبي هريرة ، عن النبي أنه قال: "إذا سمعتم صياح الديكة؛ فاسألوا الله من فضله؛ فإنها رأت ملكًا، وإذا سمعتم نهيق الحمير؛ فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطانًا"، متفق عليه .

**المقطع الثالث:** في بيان ما أقرته فطرهم من عظيم نعمه، وخلقه، وملكه، وبديع كلامه، ثم قابلوا ذلك بالجحود بدلاً من التسليم، وبالكفر بدلاً من الشكر:

ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة

ومن عجيب كفرهم بربهم:

1. أنهم رأوا نعمه تعالى على عباده:

* وكيف سخر كل ما في السموات؛ من نجوم وسحب وغيرها، وما في الأرض؛ من حيوان وشجر ونهر وغيرها لمنفعتهم، وجعلهم خلفاء عليه.
* ثم تتابعت عليهم نعمه التي لا تحصى:

أ- مما يرونه بأبصارهم من نعم ظاهرة.

ب- ومما تدركه عقولهم وقلوبهم من نعم مستترة.

ج- ومما لا يعلم كنهه ونفعه لهم إلا الله.

وجعلها سابغة عامة تامة، فاضلة عن قدر حوائجهم، ثم كان موقفهم من المنعم بذلك كله:

ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير (20)

1. أن جادلوا رسله في استحقاقه وحده لئن يُعبد ويشكر، ولا يشرك به، دون حجة علمٍ يوردونها، أو بصيرة هداية يقتفونها، أو كتاب حق يستنيرون به .

وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير (21)

1. وأجابوا من دعاهم إلى اتباع كتب الله المنزلة، التي جاءت بما فيه صلاحهم وهدايتهم بقولهم: سنتبع مقلدين ما كان عليه آباؤنا وأسلافنا !، مع أن آباءهم جهلة ضلال، قادهم الشيطان، فتبعوه على طريق الضلال، إلى طريق عذاب جهنم المسعرة الموقدة.

فهل سيتبعونهم أيضًا إلى العذاب ؟ .

ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور (22)

وهل سيتركون طريق الذين:

1. أخلصوا وجهتهم إلى الله تعالى، توحيدًا وشكرًا، واتبعوا شرعه؛ انقيادًا واستسلامًا .
2. وأحسنوا في عبادة ربهم، ثم أحسنوا إلى عباده .

وهل سيتركون طريق الذين جزاهم الله عز وجل أن:

* أعطاهم موثقًا مؤكدًا ألا يعذبهم .
* وجعل لهم حسن العاقبة، وإنما ترجع الأمور إليه سبحانه .

ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور (23)

وهل سيتبعون طريق من كفر بالله، وجحد شكره:

* فلم يحزن على كفره رسول ولا مؤمن؛ لهوانه على الله .
* وكان مرجعه إلى من كفر به، واطلع على تكذيبه بآياته، وعداوته لرسله، فأخبره بما عمل، ونبأه بما أسرّ.

نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ (24)

وهل سيتبعون طريق من كان جزاؤهم :

* أن متّعهم الله بنعمه في الدنيا زمنًا يسيرًا؛ ليزداد إثمهم.
* ثم ألجأهم بما لا يستطيعون دفعه إلى عذاب فظيع شديد، عَظُم ألمه ونكاله؛ كما قال تعالى: (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) .

ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (25)

ومن عجيب كفرهم بربهم:

ب- أنهم يشهدون له سبحانه بأنه خالق السموات والأرض، متى ما سألتهم عنه، ثم لا يتبعون هذا العلم بالعمل والشكر؛ فصار علمهم جهلاً .

فالحمد لله على وضوح الحق، الذي نطقت به فطرهم .

لله ما في السماوات والأرض إن الله هو الغني الحميد (26)

ومن عجيب كفرهم بربهم:

1. أنهم كفروا بمن هو مالك ملك السموات والأرض، المستغني عن عباده، الموصوف بالمحامد كلها، وإن جحدوه .

ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم (27) .

ومن عجيب كفرهم بربهم:

د- أنهم كفروا بمن لا تنقضي عظمة كلامه، ولا عجائب حكمته، ولو جعلوا كل شجر الأرض أقلامًا، وجعلوا كل بحار الأرض حبرًا ومدادًا، ثم مدوا البحار بمثلها مرات كثيرة؛ كما قال تعالى: (قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددًا) .

قال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها.

فسبحان من تنزه عن الشرك ومقالات المشركين، فأعجز كل أحد، ولم يُعجزه شيء، وأحكم خلقه، وأمره، وجزاءه، فأحاط بكل أحد، ولم يحطه شيء .

ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير (28) .

ومن جلالة عزته، وكمال حكمته:

1. أن خلق وبعث جميع العباد على كثرتهم - كخلق نفسٍ واحدة – بحرفين؛ هما كن، (إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون)؛ وكقوله: (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر)؛ أي لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة .
2. أحاط سبحانه بأسماعهم وأبصارهم، وسمع أقوالهم، وأبصر أفعالهم، لا يشغله شيء منها عن غيره، وسيجازيهم عليها سبحانه .

**المقطع الرابع:** في ثلاث آيات من آيات الله تعالى الباهرة، التي أعجز بها كل خلقه، وآلهتهم من دونه سبحانه، بما يحيي الله به الفطر، ويعيدها لرشدها من تعظيم الله، والتزام توحيده:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(29)

الآية الأولى: تفرد الله تعالى في تدبير العالم العلوي، وذكر ههنا منه مشهدين:

1. المشهد الأول: إدخال الليل في النهار، فيقصر الليل ويطول النهار صيفًا، وعكسه، فيطول الليل ويقصر النهار شتاءً، سبحانه في حسابٍ دقيق، قد يُعلم الله به الحاسبين.

وفي ظلال القرآن (5/2796): "ولكن طول الألفة والتكرار يفقد أكثر الناس الحساسية تجاهه؛ فلا يلحظون هذه العجيبة" .

1. والمشهد الثاني: تسخير الشمس والقمر لمنفعة العباد، وجريهما في أفلاكها المعلومة إلى يوم القيامة، دون اصطدام أو تقدم أو تأخر، في جريٍّ دقيق، قد يُعلم الله به الحاسبين.

وفي الصحيحين من حديث أبي ذرٍ أن رسول الله قال: "يا أبا ذر، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟"، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: "فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأذن ربها، فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت".

ومن دبر أمور هذه الأكوان العظيمة هو سبحانه المطلع على دقيق أفعال العباد، ومجازيهم عليها في حسابٍ دقيق، سجله الملائكة الحاسبون .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30)

قال ابن كثير (6/350): " أي: إنما يظهر لكم آياته؛ لتستدلوا بها على أنه الحق، أي: الموجود الحق، الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل ... ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابا لعجزوا عن ذلك".

فهو سبحانه:

1. العلي بذاته فوق جميع خلقه، وبصفاته؛ فلا يقاس على أحدِ من خلقه، وبقهره؛ فلا يعجزه شيء.
2. الكبير الذي لا يداينه في عليائه ضد، ولا يباريه في كبريائه ند، سبحانه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31)

الآية الثانية: تفرد الله تعالى بتدبير أمورهم في العالم السفلي:

1. والمشهد الأول: جريّ السفن المحملة بالأحمال الثقال - التي عجزوا عن حملها ونقلها – في البحر؛ بلطفه ورحمته؛ إذ جعل في الماء من القوة ما يحمل بها السفن وما حوت.

أي بحرٍ!، البحر الذي ترسبه فيه الإبرة فما دونها حمل هذه السفن العملاقة، ولأيّ شيء تلك النعمة العظيمة ؟:

1. (ليريكم من آياته) وقدرته، سبحانه .
2. وليؤمن بعظمته وعظيم سلطانه، كل "صبار على الضراء، شكور على السراء، صبار على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره، شكور لله، على نعمه الدينية والدنيوية"، السعدي، (652) .

وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ(32)

1. والمشهد الثاني: إذا أحاطت بهم الأمواج كالجبال والغمام، وسقطت القناعات الباطلة بمعبوداتهم، وعادوا لفطرهم السليمة، اتجهوا يدعون الله بإخلاصٍ وتوحيدٍ أن ينجيهم من هذا الكرب، فإذا أنجاهم بجليل قدرته، وجميل رحمته، انقسموا فريقين:
2. فريق يعمل بطاعة الله على تقصير وتفريط .
3. وفريق يجحد نعم الله وآيات قدرته ورحمته!؛ من كل غدّار ناقض لعهده، وكفور بنعمة ربه المحسن له.

وهل كان يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة، إلا القيام التام بشكر نعم الله ؟ .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(33)

الآية الثالثة: تفرد الله تعالى بتدبير أمورهم الغيبية:

1. والمشهد الأول: تدبير أمورهم يوم القيامة، في يومٍ لا يدفع الوالد عن ولده من العذاب شيئًا، ولا يكافئ الولد والده من حسناته بشيء، وتتقطع فيه أواصر القربى والدم بينهما، ووشائج الرحم والنسب.

قال البقاعي (15/211): "(واخشوا يوماً) لا يشبه الأيام، ولا يعد هول البحر ولا غيره عند أدنى هول من أهواله شيئاً بوجه" .

والواجب تجاه ذلك:

1. اليقين بهذا الوعد وهذا اللقاء، وأنه حق .
2. تقوى الله، ومخافة لقائه في ذلك اليوم بالتقصير .
3. ألا تغرّ الحياة الدنيا بملاهيها العبد؛ فيقصر في طاعة الله، ولا يغرّه الشيطان بوساوسه، فيقع في معصية الله؛ كما قال تعالى: (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا) .

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(34)

1. والمشهد الثاني: تدبير أمورهم الغيبية في الدنيا، وهي مفاتيح الغيب الخمسة، التي لا يعلمها إلا الله تعالى:
2. علم وقت الساعة، الذي لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب؛ كما قال تعالى: (لا يجليها لوقتها إلا هو)، ويفتح به علم الآخرة، وأهوالها، وما فيها من نعيم وجحيم .
3. علم وقت إنزال الغيث، قبل تهيأ أسبابه، وهو مفتاح الحياة على الأرض .
4. علم ما في الأرحام قبل تشكلها، ويفتح به علم الأجنة والحياة الدنيا، وما فيها من عمل خير وشر .
5. علم ما يكون في المستقبل، من الأمور الدينية والدنيوية، وهو مفتاح علم الغيب المطلق.
6. علم مكان الموت، وبه تفتح حياة البرزخ .

قال البقاعي (15/219): "(بأيّ أرض تموت) ولم يقل: بأيّ وقت؟، لعدم القدرة على الانفكاك عن الوقت مع القدرة على الانفكاك عن مكان معين".

ولما أخبر سبحانه أنه العليم بهذه المغيبات، التي لا يعلمها أحد أخبر أن علمه شامل للأمور كلها؛ بواطنها وظواهرها، بل هو الخبير بخبايا الأمور، وخفايا الصدور، سبحانه .

وهكذا انتهت السورة بعد هذا التطواف الرهيب في عجائب خلق الله، وقدرته، وعلمه .

آخر تفسير سورة "لقمان"، والحمد لله رب العالمين، عليه توكلنا، وإليه ننيب .